

## الأبعاد الاجتماعية لمناسك الحج

زهير الأعرجي

اهتم السيد الإمام الخميني رحمته الله، خلال حياته السياسية والاجتهادية، والاجتماعية المديدة التي قاربت قرناً من الزمان، اهتماماً بالغاً بفريضة الحج. فقد كتب العديد من الرسائل، وألقى الكثير من الخطب لارشاد الأمة حول دور الحج، خصوصاً في الانفتاح على مجتمعات المسلمين ومشاركتها همومها وآلامها. وكان رحمته الله يرى الحج مناسبة اجتماعية فريدة ومؤتمراً إلهياً عظيماً تُناقش فيه مشاكل المسلمين وتبلور فيه طموحاتهم وآمالهم. بل كان رحمته الله يرى في الحج هوية وانتماءً اجتماعياً وسياسياً للمسلمين، إذا أحسن اقناعهم بصحة متبنيات الإسلام الحقيقي.

ولذلك، فإنّ هذه المقالة سوف تتناول أولاً: الأبعاد الاجتماعية للحج عبر مناقشة: أ- الانتماء الاجتماعي. ب- محاربة الانعزال الاجتماعي. ج- فلسفة الاقتناع. ثم تتناول ثانياً: الإمام الخميني رحمته الله والحج، عبر تحليل اقواله وخطاباته السياسية الخاصة بتلك المناسك.

### أولاً: الأبعاد الاجتماعية للحج

عندما ندرس الأبعاد الاجتماعية للحج، فإننا لا نبتغي دراسة علل الشرائع، فهذا موضوع خارج عن قدراتنا كبشر. ولكننا نلتمس أموراً ظاهرية تُعيننا على فهم أنفسنا ومجتمعنا وطبيعة تكليفنا الديني.

#### أ - الانتماء الاجتماعي

لا شك أنّ الإنسان لا يستطيع أن يعيش منفرداً دون مشاركة الآخرين، ومرافقتهم في أغلب نشاطاتهم الحياتية اليومية في العمل والتعليم والعبادة. فنحن خلقنا كي نعيش في مجاميع صغيرة أو كبيرة؛ ولعل هذا يفسّر لنا إلى حدّ بعيد سبب حثّ الدين الحنيف على ضرورة التزاوج، والتزاور، والعمل المشترك، والمشاركة في الأعمال التعبديّة بصورة جماعية. فحاجتنا الانسانية نحو الاتصال بالآخرين والاجتماع بهم ليست مطلباً عملياً يسهّل علينا الحياة الاجتماعية فحسب، بل انها حاجة نفسية غريزية؛ ولذلك فإنّ الانعزال عن الآخرين يسبب أمراضاً عقليةً للفرد المنعزل.

وأهم ثمار الاجتماع الانساني هو إشباع حاجة نفسية أساسية للإنسان وهي الشعور بـ «الانتماء الاجتماعي»، فالانتماء يميز الفرد ويشعره بهويته الاجتماعية التي تميزه عن الغرباء. والشعور بالانتماء الاجتماعي نحو جماعة أو عقيدة معينة يساهم بشكل فعال في التفاعل والتأثير بين الأفراد. فالأفراد الذين يتجمعون في حافلة للنقل العام في إحدى المدن الكبيرة لا يحصل بينهم التفاعل والتأثير الاجتماعي المطلوب؛ لأنهم لا يشعرون بالانتماء إلى نفس الفكرة أو العقيدة التي تجمع الحجاج مثلاً.

إلا أنّ مناسك الحج تلهب شعور المسلم بالانتماء الاجتماعي لمجتمع التوحيد العالمي. فطبيعة التفاعل والتغير المستمر الذي يختبره الفرد في حياته الاجتماعية تجعل مسألة الانتماء مهمة للغاية. ولا يشبع هذا الشعور الانساني بالانتماء شيء غير

الدين ورسالته العظيمة التي توحد توجهات الأفراد نحو هدف واحد. ومن الطبيعي أن أهداف الانتماء الاجتماعي لن تتكامل ما لم يشعر الفرد بالأمان. والحج يعطي الفرد شعوراً بالأمان؛ لوقوعه في الأشهر الحرم التي يحرم فيها القتال أولاً، ولأن المناسك يجب أن تؤدي في وضع شرعي أمني خاص ثانياً. والانسان بطبيعته يحتاج إلى حماية الجماعة ومساندتها. ومن أجل ذلك، فقد أورد الإسلام ترتيبات أمنية على درجة عظيمة من الدقة والإحكام، منها:

- ١ - تقرير الأمن في البيت الحرام، بعد أن أوجب اليه الحج - بشروطه الشرعية - على المكلفين، كما ورد في النص المجيد: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾\* فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً...<sup>(١)</sup>، و﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لاتخافون...﴾<sup>(٢)</sup>. وكون الحرم آمناً يأمن من دخله، يعكس أهمية الأمان في استقرار التأثير الديني على الناس.
- ٢ - حرمة الاعتداء على الآخرين، أو حرمة القتال في الأشهر الحرم - وهي شهر رجب الفرد وذو القعدة وذو الحجة ومحرم الحرام - ووجوب حفظ حرمة الشعائر وحرمة القاصدين لزيارة البيت الحرام، كما ورد في النص المجيد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَن صَدَّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ...﴾<sup>(٣)</sup>.
- ٣ - حرمة مكة المشرفة وضرورة تعظيمها. فهي البلدة التي شرفها الله سبحانه من وجهين؛ الأول: الحرمة باعتبار مناسك الحج. والثاني: نسبة تلك البلدة اليه، كما قال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنِ اعْبُدُوا رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنِ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾<sup>(٤)</sup>.

٤ - منع كلِّ أساليب تعكير صفو الأمن خلال أداء المناسك، كالكذب والجدال والفسوق، كما جاء في النص المجيد: ﴿الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾<sup>(٥)</sup>.

واللافت للنظر أن مناسك الحج - بكثرة عدد المشاركين فيها، واتساع الرقعة الجغرافية التي تمارس فيها - تتم دون وجود قائد ميداني يقود جماهير الحجيج نحو هدف ما مثلاً. بل إن كل فرد مسؤول مسؤولية تامة عما يعمل به ويقوم به من مناسك في الطواف والصلاة والسعي والوقوف والرمي والنحر والمبيت. وهذا النظام الدقيق الذي ينفذ على مساحة جغرافية واسعة دون وجود قائد ميداني يقود الأفراد يعتبر من معجزات هذا السلوك الجمعي. ومناسك الحج هذه تتميز عن أعمال الحركات الاجتماعية التي لا تتحرك دون وجود قائد منظور ونظام اداري هرمي يسيطر على الحركة. ولكن تميز مناسك الحج عن نشاط الحركات الاجتماعية يعكس تميز الخالق عز وجل الذي شرع تلك المناسك عن المخلوقات التي أنشأت الحركات الاجتماعية.

ولعل أحد أشكال الإعجاز الديني في الحج، هو أن هذه المناسك يقوم بها ملايين الحجيج من شتى المجتمعات والحضارات والتركيبات الثقافية، وبهذه الدقة، دون وجود تركيب اداري لادارة هذه الأعمال الجماعية كما يحصل غالباً في المؤسسات التعليمية والتجارية والعسكرية، ودون سلسلة قيادة لإدارة هذا الجمع العظيم من الأفراد.

إن الشعور بالأمان الجماعي خلال أداء المناسك يرسخ فكرة «الانتماء الاجتماعي» التي تعكس حاجة الانسان لتشخيص هويته الدينية والاجتماعية التي تميزه عن الغرباء.

#### ب - محاربة الانعزال الاجتماعي

ليس عجباً القول: بأن الانعزال الاجتماعي يعدُّ من أخطر العوامل التي تؤدي

إلى الاضطرابات العقلية التي تصيب الفرد المحروم من المشاركة في النشاطات الاجتماعية. وليس غريباً أن نقول: بأن المسلمين هم اقل الفئات البشرية انعزلاً، وأقلهم إصابة بأمراض الاغتراب الاجتماعي. والنقطة الرئيسية هنا هي أن الحقيقة الخارجية التي يتم تصورهما في ذهن الانسان لا يمكن بناؤها اجتماعياً إلا بمساعدة الآخرين، فنحن لانستطيع أن نفهم عقيدتنا في الخلق والتكوين والحياة الاجتماعية إلا عن طريق رسائل يحملها الآخرون لنا. ولذلك، فإن للفرد طاقة نفسية لاستيعاب مفردات الحياة الاجتماعية وشروطها، وهذه الطاقة والقابلية النفسية لا بد من إشباعها حتى يتحقق الاجتماع الانساني الذي هو أصل بقاء الحياة الانسانية على وجه الأرض.

وبعد السجن الانفرادي من أكثر العقوبات قسوة ووحشية على الانسان؛ لأن الفرد بحاجة دائمة إلى الاتصال بالآخرين حتى يستطيع أن يحافظ على إحساسه المستمر بالحقائق الخارجية ويحافظ على الشعور بهويته الذاتية؛ ولذلك فإن الأفراد الذين يعاقبون بالسجن الانفرادي لفترة طويلة يفقدون إحساسهم بقيمة الوقت مع أنهم يحسبون الأيام عن طريق خطوط يرسمونها على جدران السجون. وعندما يفقدون إحساسهم بقيمة الوقت، فإن الشك يبدأ بالسريان إلى كل شيء في حياتهم، فلا يستطيعون - لاحقاً - الاطمئنان إلى الحقائق الخارجية التي اختبروها في حياتهم العامة سابقاً.

ولكن الانعزال والاغتراب الاجتماعي لا يكون دائماً نتيجة سجن انفرادي أو عزل قسري، بل قد يتولد من ضعف الانسان أمام المشاكل الاجتماعية، أو فقدانه المعنى الواضح للحياة، أو انهيار الجانب الاخلاقي الاجتماعي. فالضعف الانساني تجاه المشاكل الاجتماعية التي جلبتها المادية الحديثة، وانعدام العدالة الاجتماعية، وانحلال الأواصر العائلية والأسرية أدّى إلى إحساس الفرد بغربته وانفصاله عن المجتمع الكبير الذي يعيش فيه؛ لان المشاكل

الاجتماعية التي يعاني منها دون حلول واضحة تدفع الانسان المادي نحو الإدمان على المخدرات والكحول، وتجعله يسبح في بحر من الاضطرابات النفسية والعقلية.

أما فقدان الفرد لشعوره لمعنى الحياة الانسانية وأهداف الخلق والوجود، فانه يساعد أيضاً على الاغتراب الاجتماعي، باعتبار أن قلق الفرد وعدم استقراره على عقيدة معينة يطمئن اليها لتفسير معاني الخلق والحياة والانسان تعطي ذلك الفرد صورة مرعبة قائمة عن الحياة ودور الانسان فيها.

وكذلك الحال إذا واجه الفرد غياباً للأعراف والقيم الأخلاقية التي آمن بها، فانه سيشعر بأن سلوكه الأخلاقي غير مقبول اجتماعياً من قبل الفئة المسيطرة على النظام السياسي والاخلاقي والاقتصادي. وهي خطوة أولية نحو الاغتراب الاجتماعي.

ولكن الانعزال والغربة الاجتماعية انما هما تعبيران عن شعور الفرد المنعزل عن انسلاخه عن بقية الأفراد الذين يتعامل معهم. فالاغتراب الاجتماعي هو محاولة داخلية لرفض المجرى العام للنظام الاجتماعي من قبل المغترب، والاحساس العميق بأنه قد خُلِق في زمان ومكان لم يكونا متلائمين مع بيئته الانسانية ومحيطه الاجتماعي. بمعنى أن الفرد المنعزل اجتماعياً يعلم في داخله بأن المجتمع لا يكافئه مكافأة نفسية أو فكرية تساعده على الاندماج مع الآخرين، والسير مع السفينة الاجتماعية الماخرة في عباب الزمن.

ولاشك أن الإسلام - باعتباره ديناً ورسالة عالمية غير مقيدة بزمن معين - اهتم بقضية الاغتراب الانساني، وعالج هذه المشكلة عبر حثه الأفراد على ضرورة الانتاء الاجتماعي التي لاحظنا أهميتها الفائقة في كسر طوق الاضطرابات العقلية والنفسية. وكان الحج احد مصاديق محاربة الاغتراب الانساني على مر التاريخ. ونظرة خاطفة لطبيعة الحج في مكافحة الانعزال الاجتماعي، تبين لنا

النقاط التالية:

- ١- أنّ التهيؤ الاجتماعي للسفر يجمع الأفراد لفترة زمنية معينة، مما يساعدهم على كسر طوق العزلة الاجتماعية.
- ٢- أنّ فكرة الاستطاعة تشجع الأفراد على العمل الجاد من أجل التحصيل المالي والاكتفاء، وهذا يبعد الأفراد عن الكسل ويبعدهم عن الانعزال أيضاً؛ لأنّ التكسب غالباً ما يكون جماعياً.
- ٣- أنّ مناسك الحج تعكس طبيعة التجمع الانساني، فالمسلك الجماعي في العبادة يمنح الفرد شعوراً بالاندماج مع الأمة الكبيرة المنتشرة في كل بقاع الأرض.
- ٤- أنّ الإسلام يكلّف الانعزال الذاتي «الشخصي» عبر حثّ المكلف على الاتصال بالله سبحانه وتعالى، ويكافح الانعزال الموضوعي «الاجتماعي» عبر تطبيق الاحكام الشرعية على الظروف الاجتماعية، وذلك تسلياً للشرعية الطريق على الانعزال والاعتزاب الاجتماعي بشكل عام.
- ٥- العدالة الاجتماعية في الإسلام والمسؤوليات المتبادلة بين الأفراد أنفسهم، وبين الفرد والمجتمع، ووصلة الرحم، كلّها تغلّب من خلال الاعمال الاجتماعية والحج يكتسب جانباً من جوانب العدالة الاجتماعية الكلية في الإسلام.
- ٦- يعتبر التقدم في السن أحد اسباب الانعزال الاجتماعي في المجتمعات المادية بسبب عدم قدرة المسنّ على الإنتاج، تشبهاً بمشاكل اقتصادية حتمية. وإذا أضفنا إلى ذلك مشاكل انحلال الروابط الأسرية بسبب التصنيع وتغيير الخارطة السكانية، يتضح لنا أنّ من أكثر الأمراض النفسية ظلاماً وتأثيراً على الفرد هو الانعزال الاجتماعي للمسنين. إلا أنّ الاستطاعة الشرعية لأداء الحج غالباً ما تحصل عندما يتوسط عمر الانسان ويجمع مالاً من عرق جبينه ليحقق شروط الاستطاعة الشرعية. وليس هنا تمييز شرعي من أي نوع تجاه المسنين؛ لأنّ الدين ضمن منهجه الأخلاقي حثّاً على احترام الكبير وضمن معيشتته على

الصعيد العائلي أو صعيد الدولة. ولما كانت العلاقات العائلية في الإسلام متماسكة كان المسنُّ أكثر الأفراد ثراءً في الخبرة والتعبد والعلاقات الاجتماعية، وأكثرهم بعداً عن الانعزال الاجتماعي.

وبكلمة، فإنَّ الاطار الاجتماعي لمناسك الحج، تدفع الناس نحو التماسك والتعاون الذي يتحول لاحقاً إلى لبنة من لبنات بناء الدولة الإسلامية العالمية. ولاشك أن النشاطات الشرعية للحج الإسلامي انما تساعد جميع الأفراد على كسر طوق الانعزال الاجتماعي والغربة الانسانية التي نلاحظ مساوئها النفسية في عالم اليوم.

#### ج - فلسفة الإقناع

ويبرز سؤال مهم هنا، وهو: ما هي الظروف الموضوعية التي تكون سبباً قوياً لتغيير اتجاهات الأفراد واعتقاداتهم وسلوكهم؟ وكيف نصدِّق بأنَّ ذلك التغيير سيكون تغييراً جوهرياً حقيقياً وليس تغييراً سطحياً ظاهرياً لا معنى له؟  
لاشك أننا نتعرض يومياً إلى محاولات اجتماعية عديدة للتأثير علينا في التفكير والشعور والسلوك، وهذه المحاولات تهدف إلى إقناعنا بقبول أو رفض سلوك وتفكير معين، وبطبيعة الحال فإنَّ الإقناع لا يتحقق ما لم يتم تغيير اتجاه الأفراد المراد اقناعهم.

ولكي نفهم طرق الإقناع، لا بد أن نفهم أصول الاتجاه الانساني وهي ثلاثة: (١) العقيدة التي يؤمن بها الانسان. (٢) القضايا العاطفية المرصوفة بين أحجار تلك العقيدة. (٣) النية، والقدرة على الاستجابة للمحفزات الخارجية.

فعندما نكوّن اتجاهنا نحو الأشياء والظواهر الخارجية التي من حولنا، فاننا نحتاج إلى معلومات يقدمها لنا الآخرون:

أولاً: أن من أهم وسائل الإقناع لتثبيت أو تغيير اتجاهاتنا هو كمية المعلومات الواردة إلى أذهاننا من المصادر الخارجية.

ثانياً: ملاحظة سلوك القادة يؤثر دائماً على أفكارنا.

ثالثاً: نظام الثواب والعقاب يؤثر دائماً على توجهاتنا السلوكية.

وفما نحن فيه ، تعتبر ساحة الحج من أنشط الأماكن الاجتماعية فعالية في الاقتناع؛ لأنّ الحجيج يأتون من مختلف بقاع العالم وهم يحملون معلومات جديدة عن الخبرات الاجتماعية والدينية في مجتمعاتهم . ويتعرض الحجيج إلى فعالية التأثير السلوكي للذين يحتلون موقعاً متميزاً على صعيد القيادة الدينية والحركية والثقافية الإسلامية في مجتمعاتهم المتباينة . ولاشك أنّ التبليغ الإسلامي الذي ينبغي أن يقوم به المبلّغون - وهو يشمل تذكير الحجيج بالثواب والعقاب الآخروي الذي تعرض له القرآن الكريم - يعدُّ وسيلة أخرى من وسائل الإقناع الاجتماعي بضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية على كلّ أركان الحياة الاجتماعية الإسلامية . ومع أنّ فلسفة الاقتناع وتطبيقاتها قد تطورت في العقود الأخيرة ، إلا أنّ مبادئها قديمة قدم فكرة: المصدر ، والرسالة ، والجمهور . وهي من أهم متغيرات الاقتناع؛ وتُلخّص بالأسئلة الثلاثة: «مَنْ الذي يخاطب مَنْ؟ ويقول ما؟ وما هو التأثير؟» .

وحتى لو فهمنا الحج من هذا المنظار؛ لرأينا أنّ هذا العمل العبادي يجمع كلّ متغيرات الاقتناع التي لازال الفلاسفة يناقشونها لحد اليوم . فالحاج المبلّغ - وهو مصدر الإقناع - ينبغي أن يجمع ما بين الخبرة ، والثقة ، والمنزلة العلمية والاجتماعية ، والمجازبية الخارجية والذاتية . والرسالة ينبغي أن تحمل كلّ معاني الجذب العقلائي والعاطفي ، والاسلوب اللغوي الفصيح ، والموضوعية في طرح الايجابيات والسلبيات . والجمهور ينبغي أن يكون على درجة من الاستعداد لتقبل المعلومات من اجل الاقتناع .

وهذه المتغيرات - في واقع الأمر - لها مدلولاتها العملية في إقناع الناس بضرورة تطبيق المفردات الشرعية والوصول إلى التغيير الاجتماعي المنشود .

ولاشك أنّ من أهم خطوات عملية الاقتناع هو أن يشعر الأفراد جميعاً بالمساواة الحقوقية والاجتماعية فيما بينهم. فاذا تفاوتت طبقاتهم في المجتمع، انعدمت - عندئذٍ - وسائل الاقتناع الذاتية الحقيقية؛ لأنّ الإقناع الجديد المفروض من قبل طبقة أقوى سيكون مجرد إكراهٍ يرضخ لشروطه الأفراد، وهذه المسألة مهمة في الحج أيضاً، فشعور الحجيج بالمساواة التامة يفتح أبواباً عديدةً للإقناع الشرعي بضرورة التغيير الاجتماعي.

نقطة أخرى مهمة، وهي أنّ إيجابية طرح الأفكار المقنعة يؤدي إلى إيجابية القبول والاقتناع من قبل الحجيج. ومثال ذلك، لو ان فرداً حاول إقناع الآخرين بتطبيق الأحكام الشرعية عن طريق عرض العقوبات الإسلامية والجزاء الرادع مجرداً من أي إشارة إلى الرحمة الإلهية والمغفرة والثواب الأخروي، فان ذلك التبليغ سوف لا يشجع الأفراد على الاقتناع بتلك الأفكار ما لم يلازمها طرح موازٍ للعفو والغفران الإلهي.

نقطة ثالثة، وهي أنّ السلوك الانساني لا يتبدل إلا بتبدل الاتجاه الداخلي للفرد.

فالفردي لا يسلك سلوكاً مختلفاً ما لم تؤثر عليه قوة فكرية عظيمة تستطيع أن تصل إلى قرارة نفسه وأعماق وجدانه، فتغير اتجاهه الذاتي نحو العقائد والأفكار، وعندها فقط يتبدل سلوكه الشخصي أو الاجتماعي. ومن المهم أن نعلم أنّ الرسالة الدينية كانت ولا تزال تهدف بالاصل وبشكل واضح إلى تغيير اتجاه الأفراد أولاً عن طريق تغيير توجه القلوب كما أشارت إلى ذلك الآية القرآنية الكريمة بصدق: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَتْ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ﴾<sup>(٦)</sup>. وإذا ما تم تغيير اتجاهات القلوب، فإنّ تبديل السلوك سيكون امراً ممكناً، ان لم يكن طبيعياً.

ولكن إذا قاوم الفرد وسائل الاقتناع لاعتبارات ذاتية محضة، فإذا حصل؟ لاشك ان الفرد لا يستطيع أن يعيش في تناقض ذاتي بين قوتين تجذبه كل منهما نحو

الطرف المضاد. فلنفترض أنّ فرداً ما كان يرتكب عملاً مخالفاً للشريعة - مساندة الظالم مثلاً - ثم التقاه عالم من علماء الدين وعرض عليه فكرة العقوبة الأخروية إذا لم يتوقف عن ارتكاب ذلك العمل، ملمحاً إلى ابواب التوبة التي فتحتها الدين أمام المذنبين. فلكي يزول هذا التنافر بين الطبيعة الفطرية التي يمثلها الدين وبين المخالفة الشرعية التي ترفضها الفطرة الانسانية، يقف ذلك الفرد أمام نظرية الاقتناع عبر الخطوات التالية:

أ - يغيّر اعتقاده بأنّ المخالفة عمل طبيعي مستساغ.

ب - يغير سلوكه السابق، وذلك بالتوقف عن ارتكاب تلك المخالفة الشرعية.

ج - يعيد تقييم سلوكه بالتوبة والاستغفار.

د - يضيف بعداً جديداً إلى تفكيره الجديد حول الالتزام بتطبيق الأحكام الشرعية.

إنّ الانسان - مهما كان اعتقاده - ملزمٌ ذاتياً بتقليل التنافر الفكري الداخلي إلى أدنى حدٍّ ممكن؛ لأنّ التنافر بين ما يعتقد الفرد وبين ما يعمله يؤدي إلى تمزيقه نفسياً وعقلياً؛ ولذلك كانت الرسالة الدينية - ورسالة الحج بالخصوص - منسجمة تماماً مع الفطرة الانسانية، كما اشار القرآن المجيد إلى ذلك: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾<sup>(٧)</sup>.

هذه ملامح مختصرة عن الأبعاد الاجتماعية لمناسك الحج، وقد عرضناها كمدخل لدراسة الفهم الاجتماعي لفريضة الحج عند السيد الإمام الخميني عليه السلام.

### ثانياً: الإمام الخميني عليه السلام والحج

تعرض الإمام الخميني عليه السلام لأفكار الحج بكثير من الدقة الاجتماعية، وحاول ان يرسّخ في ذهن الأمة فكرة مهمة. وهي أنّ مناسك الحج ليست مناسك روحية فحسب، بل إنّ لها مقاصد وملاكات اجتماعية على نطاق المسلمين في العالم أجمع.

وسوف نعرض خمس عشرة فكرة من أفكار الإمام ﷺ حول الحج مع تعليق مختصر على كل منها.

### (١) الفريضة ذات المحتوى الاجتماعي

يقول الإمام ﷺ في إحدى رسائله واصفاً فريضة الحج بالقول: «نظراً لاقتراب أيام إقامة واحدة من الفرائض الإسلامية الكبرى ذات المحتوى الانساني، الروحي، السياسي، الاجتماعي، العظيم، أعني فريضة حج بيت الله الحرام يلزم... تطهير هذه الفريضة المقدسة من آثار الطاغوت لتعود إلى الإسلام الحقيقي...»<sup>(٨)</sup>.

تعليق: تعدُّ مناسك الحج التي شرعها الإسلام شكلاً من أشكال السلوك الجمعي ووجهاً من أوجه التفاعل الروحي والاجتماعي بين المسلمين. ومع أننا ننظر إلى الحج من زاوية: الأحكام الشرعية التي تلزم الفرد بوجود الحضور عند تحقق الاستطاعة الشرعية، وما يرافق ذلك الحضور من إلتزامات في تطبيق تلك الأحكام. وننظر إلى تلك العبادة أيضاً من زاوية الإطار الروحي الذي يتجسد في الرحلة الشيقة إلى بيت الله الحرام وما يرافقها من سمو أخلاقي عظيم يرفع الفرد المكلف إلى أعلى درجات الكمال النفسي والروحي مع خالقه العظيم. إلا أن الحق هو ان هناك جانباً ثالثاً خطيراً من جوانب الحج، ألا وهو الجانب الاجتماعي وما يرافقه من سلوك جمعي عالمي ينتهي إلى تغيير اجتماعي له أبعاد خطيرة.

ولما كانت مناسك الحج على درجة عظيمة من الأهمية على الصعيد الشرعي، فإننا نفترض أن ينبثق عن تلك الفريضة لوان من ألوان النشاط الانساني.

**اللون الأول:** هو النشاط التعبدي الفردي وما يصاحبه من خشوع وتواضع وتذلل للمولى عز وجل.

**اللون الثاني:** هو النشاط الاجتماعي الذي يتمثل بالسلوك المشترك بين المتعبدين، وما ينتج عنه من تفاعل بين الأفراد من مختلف الأجناس، ويؤدي

بالنهاية إلى التغيير الاجتماعي الذي هو الأصل في نشاطات السلوك الجمعي . ولا يتوقف الأمر عند ذلك، بل إنَّ الحج يولد شعوراً لدى الأفراد المندمجين بمناسكه وأفعاله، بالوحدة الكونية التي تجمع الخلق والمخلوقات . فالنظام الكوني في الحركة والدوران والبداية والنهاية ينعكس بشكل من الأشكال على هذه الأفعال التعبديّة المنتظمة كالطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والصعود إلى جبل عرفات، والإفاضة إلى المزدلفة، ونحوها . وهذا الانسجام في طبيعة مناسك الحج يبرز شكلاً جديداً من أشكال التنظيم الاجتماعي الديني الذي يستحق تأملاً دقيقاً في أهدافه ومقاصده الحياتية .

#### (٢) هذا المؤتمر العظيم

يشير الإمام عليه السلام إلى مناسك الحج ومناسبتها، فيصفها بالمؤتمر العظيم . يقول عليه السلام: «لا يخفى على أحد أن إقامة مثل هذا المؤتمر العظيم لا يتسنى لأية شخصية ولا لاية حكومة . فهذا امر الله تعالى هو الذي أعدّ هذا التجمع الكبير»<sup>(٩)</sup> .

تعليق: إنَّ الإسلام لم يقدم للبشرية أعظم نظريات السلوك الجمعي فحسب، بل وضع الأفراد على محك التكليف الشرعي العملي وأوجب عليهم - عند تحقق الاستطاعة الشرعية وضمن تحديد زماني معين - التوجه إلى بيت الله الحرام في وسط صحراء الجزيرة العربية الفاحلة لأداء تلك المناسك الشرعية في الطواف والصلاة والسعي والوقوف والنحر والمبيت . والتزام الأفراد بهذا العمل على مدى القرون المتتالية، مع ملاحظة المشاق التي كان يعاني منها الفرد في التنقل، عبر عن حقيقتين :

الأولى: حقيقة الرسالة الإسلامية وارتباطها بالتصميم الإلهي للخلق والمخلوقات . فلو قامت أية حركة اجتماعية أو حزب سياسي بدعوة الناس إلى التجمع في ذلك المكان الصحراوي في وقت محدد من كل عام، لما استجاب لتلك الدعوة أحد .

الثانية: أنها عبّرت عن أنّ النتائج المترتبة على تأدية تلك المناسك إنما تثمر على صعيدين:

فردي: وهو ما يتعلق بالتهذيب الروحي للذات .  
وجماعي: وهو ما يتعلق بتهذيب المجتمع الانساني الكبير .  
ولاشك أن الآثار الناتجة عن مناسك الحج يمكن فهمها على أساس أنها آثار مؤتمر عظيم للمكلفين من اهل الأرض ، قد دعت له السماء .

(٣) المعاني والاشارات

يشير الإمام عليه السلام إلى أنّ أعمال الحج العبدية لا يمكن أن تؤخذ على ظاهرها، بل لا بد من فهم معانيها بمسبب الطواف حول بيت الله مؤتمراً لعدم الالتفاف حول غير الله، ورجم العقبات رجم شياطين الانس والجن .  
تعليق: بالرغم من أنّ الحج عبادة عظيمة من وسائل التفاعل الاجتماعي، إلا أنّ الاتصال غير المنهجي - وهو تبادل البصائر أو التعبير عن عمل ما بواسطة رموز غير لغوية كالاشارة - بالتعبير الجسدية تعتبر مهماً أيضاً في الاتصال الاجتماعي والديني .  
يستطيع الجسم الانساني عموماً - ولا سيما في المناسك بالخصوص - القيام بحركات متنوعة كالنضب والحزن والفرح والتعجب والخوف والقلق ونحوها .  
ولاريب أن حركات الجسم الانساني ليست كالحركات الأخرى أو غير مباشر برسائل ورموز مفهومة على الصعيدين الاجتماعي والديني .

ومن الواضح أنّ الاشارات والتعبير الجسدية تختلف من مجتمع إلى آخر حسب التركيبة الثقافية والدينية التي يعيشها الأفراد في ذلك المجتمع ، فهذه الاشارات تستطيع ان تبعث برسائل اجتماعية فعالة بين الأفراد .  
ولكن الاشارات والتعبير الجسدية غير محدودة بمحدود الاشارات الاجتماعية ، بل إنّ لها معانٍ دينية وروحية . فالدين ، وفهماً منه لطبيعة الانسان في

التعبير استخدم الاشارات والتعابير الجسدية في العبادات كالصلاة والحج . فالصلاة بشكلها الخارجي ، كاستحباب رفع اليدين إلى الأذنين أو حيال الوجه في تكبيرة الاحرام ، والوقوف في القراءة ، والانحناء في الركوع والسجود ، والجلوس في التسليم ، ورفع اليدين عند الدعاء ما هي الا تعابير جسدية للاتصال بالخالق عز وجلّ عبر اللغة والتعبير الجسدي الشرعي الذي وضعه الشارع عزّ وجلّ للمكلف . والطواف ، والسعي ، والوقوف في عرفات والمشعر الحرام ، والرمي ، والمبيت في منى هي أيضاً تعابير جسدية لطبيعة هذه العبادة الواجبة على المكلفين . والذي يهتّمنا على هذا الصعيد هو أنّ التعابير الجسدية في الحج هي وسيلة من وسائل التفاعل الاجتماعي ، لأنّ الجدية في أداء المناسك والتي تعكسها تلك التعابير الجسدية من الخوف من الخالق عزّ وجلّ ، والبكاء خشية منه ، والتضرع والدعاء ، وانتظام الجسم في الطواف ، والاسراع في بعض مراحل السعي ، كلّها تساهم في عملية التماسك الديني بين الأفراد ؛ خصوصاً عندما يشعر الأفراد أنهم يؤدّون هذه المناسك مجتمعين ، فتكون التعابير الجسدية وسيلة من وسائل انتظام الأفراد وانضباطهم كأمة لها كيانها الروحي والفكري والعبادي المتميز . ولاشك أنّ هذه التعابير الجسدية الجماعية في ممارسة الفريضة تساهم في إنشاء انسجام داخلي بين المسلمين له أبعاده الاجتماعية العظيمة .

اذن ، فان رجم الشيطان أو الطواف حول البيت ينبغي أن يكونا مؤشرين لحسن توجه المكلف نحو الله سبحانه وتعالى . فالهدف هو الوصول إلى الله سبحانه عبر هذه الوسائل .

#### (٤) القدرة العقلية

يقول الإمام ُضمّن وصاياه في الحج : «... يلزم تذكير السادة العلماء ، وعلماء الدين المتمرسين المرافقين للقوافل بتشكيل جلسات قبل الحركة؛ لتعريف الحجاج المحترمين على المسائل الشرعية والواجبات الانسانية»<sup>(١١)</sup> .

**تعليق:** لاشك أنّ العلم بالأحكام الشرعية الخاصة بالمناسك ضروري من أجل أدائها بصورة صحيحة. ولعل أهم ما ينتجه الجانب التطبيقي المتعلق بمناسك الحج هو التغيير الناتج من ملاقاته الحجيج بعضهم مع بعض. فالتكليف الوجوبي لتأدية تلك الفريضة مرهون بشروط ثلاثة، وهي: البلوغ والعقل والاستطاعة. بمعنى أنّ القدرة المالية والعقلية هي التي تحدد وجوب الحج. ولكن إذا استثنينا القدرة المالية باعتبارها مجرد وسيلة للوصول لتأدية أعمال الحج، بقيت لدينا القدرة العقلية، وهي الأصل في التغيير الاجتماعي. أي أنّ المكلفين الذين يجتمعون لأداء المناسك هم الذين لديهم القابلية الفكرية والاستعداد النفسي على استيعاب شروط ومفردات التغيير الاجتماعي. ولاشك أنّ الحجيج يفدون من مجتمعات إنسانية متباينة في الفكر واللغة والعادات الاجتماعية والثقافية، والحج لا يوحدهم على صعيد السلوك العبادي فحسب، بل على صعيد الفهم الاجتماعي لطبيعة المجتمعات الأخرى. ومثال ذلك، أنّ المكلفين المنتمين لمجتمع أكثر تطبيقاً لأحكام الإسلام وإلزاماته الاخلاقية، إذا تواجدوا على ساحات البيت الحرام وحرّم مكة فإنهم سيميزون عن غيرهم من بقية افراد المجتمعات، بسبب تطابق سلوكهم مع السلوك الشرعي. وهذا السلوك العملي القريب من جوهر الإسلام سيترك آثاره الواضحة على بقية الأفراد من المجتمعات الأخرى. وبسبب هذا التفاعل الاجتماعي، فإنّ المسلمين على اختلاف تركيبهم الثقافية والاجتماعية سيكتسبون بعضهم من بعض بما يرفع من مستواهم الأخلاقي والتطبيقي بالمقدار الذي ينسجم مع الشريعة، وهذا هو المقصود من التغيير الاجتماعي المطلوب.

وثمة عامل آخر مهم ينبثق عن مناسك الحج، ويقوم بدور البناء الاجتماعي أيضاً، وهو ترسيخ دور القيادة الدينية المرجعية في حياة الأمة الإسلامية؛ لأنّ المفترض بالحجيج ان يقلّدوا فقيهاً مرجعاً يرشدهم إلى تعاليم دينهم، وهذه القيادة الشرعية الفكرية لها مردودها الايجابي على انسياب العمل الاجتماعي، وانسجام

الأفراد في توجهاتهم العملية والروحية. ولاريب أن القيادة العلمائية تستطيع أن تفرض التغيير الاجتماعي على الأفراد، إلا أن ذلك ليس من طبيعة الرسالة الإسلامية التي تهتم بالفرد اهتماماً شاملاً، وتحمله مسؤولية القيام بالعمل العبادي الفردي والعمل الاجتماعي على خطٍ متوازٍ كما تتلمس ذلك من روح النص المجيد: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾<sup>(١٢)</sup>. ولذلك فإن دور الفقيه هو إرشاد الأفراد نحو ضمان صحة تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، خصوصاً فيما يتعلق بمناسك الحج التي نحن بصددنا. إلا أن التفاعل الاجتماعي بين الأفراد وما يحققه من نتائج عظيمة في التغيير الاجتماعي هو من مسؤولية الأفراد أنفسهم. ويجب ان لا يغيب عن بالنا أبداً أن هؤلاء الأفراد لديهم القابلية العقلية والفكرية المشروطة في التكليف الشرعي الخاص بوجود الحج، على اتصال مجتمعاتهم إلى مستوى الكمال الروحي والاجتماعي الذي صممه لهم الإسلام.

#### (٥) سفرٌ إلى الله

يقول الإمام عليه السلام: «اعلموا أن سفر الحج ليس سفر تكسب، ليس سفر حصول على متاع الدنيا، انه سفر إلى الله. أنتم تتجهون إلى بيت الله، فعليكم أن تؤدوا كل الأمور في إطار الهي...»<sup>(١٣)</sup>.

تعليق: إن هذا السلوك الجمعي «أداء المناسك» هو سفرٌ خالص إلى الله. والسفر إلى الله يقتضي طهارة استثنائية. فأداء المناسك مبنيٌّ على طهارة الحجيج من النجاسات المادية كالحديث والخبث، والنجاسات الروحية كالمجدال والفسوق، ومبنيٌّ على إلزامهم بارتداء زيٍّ موحَّدٍ يُعَدُّ من أبسط الأزياء الانسانية، وعلى حثهم على مراقبة سلوكهم في عدم إيذاء الكائنات الحية كالحبوانات والأشجار، بل كل ما يخص البيئة الانسانية وما حولها. ولاشك أن هذا التهذيب الفردي ضمن السلوك الجماعي يترك آثاره النفسية والتربوية العميقة داخل شخصيات الأفراد.

إنّ الطهارة الروحية والمادية تعتبران من أهم مميزات السلوك الجمعي الإسلامي . ففي الطواف بالبيت تتوجب - إجماعاً - الطهارة من الحدث الأكبر وهو ما يوجب الغسل ، والأصغر وهو ما يوجب الوضوء ، باعتبار أنّ الطواف بالبيت صلاة ، كما جاء في المشهور من حديث رسول الله ﷺ . وكذلك تتوجب طهارة المرأة من الحيض . وبذلك يكون السلوك الجمعي الإسلامي من أظهر التجمعات الانسانية على وجه الأرض؛ حيث يتجمع للطواف والسعي وبقية المناسك ، الملايين من الأفراد وهم على أتم أشكال الطهارة البدنية والروحية .

#### (٦) رداء الحج والانسجام الاجتماعي

يقول الإمام ﷺ بشأن رداء الحج وتأثيره على الانسجام الاجتماعي بين المسلمين: «المسألة الأساسية في هذه الاجتماعات - يعني مناسك الحج - هي أن يجتمع المسلمون معاً في هذه المواقف في جوّ خالٍ من التشريفات وبعيد عن كلّ الجوانب الذاتية وبكفن واحد أو بثوبين بسيطين»<sup>(١٤)</sup> .

تعليق: إنّ الموضة في الأنظمة المادية تستهلك جزءاً كبيراً من موارد النظام الاجتماعي المالية؛ لأنها تصميم مؤقت يستبدل دائماً بتصميم آخر ، خصوصاً الملابس وما يتعلق منها بالمظهر الخارجي للفرد . ويعتبر الفرد - الذي يعيش في المجتمع المادي ولا يساهم في الموضات الحديثة المتناوبة الصدور - كائناً انعزالياً خارجاً عن إطار الانسجام الاجتماعي . ولكن الحج يُشعر الفرد بأنّ الزبي ما هو الا وسيلة من وسائل تغطية مساوئ الانسان فحسب ، وليس مظهراً من مظاهر الطبقة والثراء والتميز والتفاضل الانساني . فارتداء ثياب الاحرام البسيطة توفر للنظام الاجتماعي الانساني موارد غير قليلة ، عندما يتحتم على الحجيج ارتداؤها ، وهي ثوبا الاحرام للرجل يأترز بأحدهما ، ويرتدي الآخر . ولا شك ان وجوب ارتداء قطعيتين من قماش غير مخيط ، لا بد من أن يجعل الفرد يشعر بقيمته الحقيقية وتواضعه في الحياة الاجتماعية .

ويمكن اعتبار أعمال الحج من أكمل أشكال السلوك الجمعي ، لما تتميز به من دقة وتنظيم ، مع أنه خالٍ من التشريعات . فالمناسك التعبدية الجماعية التي يقوم بها الأفراد في الحج تختلف تماماً عن نشاط الحركات الاجتماعية مثلاً ، وأعمال الكنائس النصرانية والمعابد اليهودية ، وتختلف تماماً عن كل سلوك الجمعي آخر . ومن المناسب على سبيل الافتراض ان نطلق على السلوك التعبدية والاجتماعي الذي يقوم به الأفراد في الحج بالسلوك الجمعي الإسلامي ، حتى يتميز عن بقية أشكال التصرفات التي تفسرها الافكار الدينية والاجتماعية الأخرى .

ولعل منشأ اختلاف أعمال الحج عن أعمال الأفراد المنضوين تحت راية الحركات الاجتماعية هو أن الأعمال العبادية للمكلفين في الحج مع أنها خاضعة للاحكام الشرعية بدقة ، إلا أن التأثير والتأثير الذي يحصل بين الأفراد في الطواف ، والسعي ، والوقوف في عرفات ، والافاضة إلى المزدلفة ، والمبيت في منى ، يُخرج أعمال الحج عن اعمال الحركات الاجتماعية المحضة التي تهدف بالأساس إلى ايصال صوتها إلى الجهات السياسية فقط . بينما يؤدي الحج ومناسكه العظيمة إلى إكمال العمل العبادي وإلى انسجام فكري وروحي بين الحجاج .

#### (٧) تبادل المعلومات

يقول الإمام عليه السلام بشأن بعض وظائف الحج : «المهم - في هذه التجمعات - أن تبادلوا المعلومات بشأن ما مرّ في بلاد المسلمين...»<sup>(١٥)</sup> .

تعليق: لما كانت المجتمعات الانسانية تختلف في درجات الرقي والتقدم الحضاري والثقافي ، فان اجتماع الناس من مستويات متباينة في الابداع يساهم في تبادل المعلومات وفي التأثير البناء على الصعيد الانساني العالمي . ولاشك أن تعدد المواقف في الحج والفترة التي يقضيها الحجاج قبل مناسك الحج وبعدها ، تمنح هؤلاء الأفراد فرصة عظيمة للتفاعل والتأثير الاجتماعي فيما بينهم . وتبادل المعلومات ، على اطلاقه ، يعني انتشار المعرفة والعلم بأوضاع المجتمعات بين

المسلمين .

بيد أن مقتضيات تبادل المعلومات خلال أداء المناسك وبعدها تؤدي إلى تغيير هائل يتم على صعيدين :

**الصعيد الأول:** التغيير الروحي والتطهير النفسي من آثام الانحراف ، فقد ورد في النص المجيد: **﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود﴾**<sup>(١٦)</sup> . فطهارة البيت الحرام من عبادة الأوثان يجعل تلك البقعة من أطهر المناطق الجغرافية على وجه الأرض . فهذه الأرض الطاهرة تحمل وقت الحج ، بل في كل وقت ، أطهر الأفراد وأنقاهم ؛ لأنهم يعيشون حالة من حالات الكمال النفسي مع خالقهم العظيم ؛ فمنهم «الطائفون» حول البيت ، و«القائمون» و«الركع السجود» .

**الصعيد الثاني:** هو التغيير الاجتماعي الذي عكسته الآية الشريفة بصدق **﴿ليشهدوا منافع لهم﴾**<sup>(١٧)</sup> . خصوصاً إذا ما لاحظنا أن التحديد الزمني للحج الوارد في قوله تعالى : **﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات﴾**<sup>(١٨)</sup> ، والتحديد الجغرافي : **﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً﴾**<sup>(١٩)</sup> ، ودعوة الأفراد للاشتراك : **﴿وادن في الناس بالحج يأتوك رجالاً﴾**<sup>(٢٠)</sup> ، كل ذلك يجعل الحج وأعماله من أعظم وسائل التغيير المنشود .

#### (٨) مدار الأمر: المسلمون

ويقول ﷺ : **«... وأن يفكروا في حلّ مشاكل المسلمين»**<sup>(٢١)</sup> .

**تعليق:** إن الدليل على أن التأثير الاجتماعي والتأثر يجب أن يتم بين المسلمين أنفسهم خلال مناسك الحج ، هو عدم السماح للمشركين بالدخول إلى حرم مكة والتأثير على شعائر الحج العبادية ، وما يصحبها من تغيير اجتماعي مرتقب . ولعل ما ورد في القرآن الكريم يصرّح بذلك : **﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾**<sup>(٢٢)</sup> . والمراد بالنجس هو النجاسة

الشرعية ، و﴿لا يقربوا المسجد الحرام﴾ هو منعهم من دخوله ودخول كل مسجد .

#### (٩) تبادل وجهات النظر

يقول الإمام ﷺ شارحاً طبيعة الحج الإبراهيمي : «تبادلوا وجهات النظر وتفاهموا لحلّ مسائل المسلمين المستعصية . اعلموا أنّ هذا الاجتماع الكبير الذي يعقد سنوياً بامر الله تعالى في هذه الأرض المقدسة يفرض عليكم انتم المسلمين ان تبدلوا الجهود على طريق الاهداف الإسلامية المقدسة ومقاصد الشريعة المطهرة السامية ، وعلى طريق تقدم المسلمين وتعاليمهم واتحاد المجتمع الإسلامي وتلاحمه» (٢٣) .

تعليق: إنّ تعلم الخبرات الاجتماعية من أفراد يختلفون تماماً في المنشأ واللون واللغة والمكان ، يساهم مساهمة عظيمة في بناء الدولة العالمية الموحدة ، وهو دليل على عالمية الإسلام ، وعالمية الرسالة السماوية على النطاقين النظري والتطبيقي . ولاشك أنّ السلوك الجمعي في احكام الحج يصهر تلك الخبرات الاجتماعية ، فيتعلم المسلمون الوافدون من قارات العالم المختلفة بعضهم من بعض التقاليد والعادات الاجتماعية والعلوم النظرية والثقافات والقضايا الفكرية ، وهذا يؤدي حتماً إلى تقارب في وجهات النظر الفردية والجماعية بخصوص المشاكل التي تعاني منها تلك المجتمعات . ولما كان الفرد مكلفاً على الصعيد الوجداني بالحج مرة واحدة عند تحقق الشروط ، فان اختلاف نوعية الأفراد المكلفين بالحج كل سنة يساهم في نقل الخبرات الاجتماعية فيما بينهم ، ويقلل من فرص احتكار تلك الفريضة على طبقة معينة من الأفراد . وبالتالي ، فانه يساهم في ازدهار نمو تلك المجتمعات البشرية المتباينة في العادات والتقاليد والثقافات .

#### (١٠) اشتراك الافكار

يقول الإمام ﷺ شارحاً طبيعة التجمع : «لشترك أفكاركم وعزائمكم على طريق الاستقلال واقتلاع جذور سرطان الاستعمار» (٢٤) .

تعليق: إنّ المناسك التعبديّة الجماعية تولّد إحساساً عظيماً بالشعور الموحد

تجاه المشاكل المشتركة، بل حتى فيما يتعلق بطبيعة الانسان ووحدة الخالق عز وجل. ولاشك أن التأثير الاجتماعي في الحج ينبع من وعي أبعاد تلك الفريضة من قبل المكلفين، وقد جاء في «كتاب أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى (قثم بن عباس) عامله على مكة فقال: أقم للناس في الحج واجلس لهم العصرين فأفت المستفتي وعلم الجاهل وذاكر العالم...» (٢٥). وهذا العمل - لاشك - يعتبر من أعظم وسائل التأثير الاجتماعي على الناس.

ورسالة الدين على درجة عظيمة من الأهمية على صعيد التأثير، لأن تلك الرسالة تهذب نظرة الأفراد وتوحدّها تجاه الحياة الاجتماعية والسياسية والخلق والخالق والوجود. فالفرد يقارن رأيه مع فرد آخر يشابهه في الدين والاعتقاد، ولايكثرث كثيراً لفرد آخر يبتعد عنه في الدين والمنشأ الاعتقادي والموقع الجغرافي. وإذا كان البعد شاسعاً بين آراء ذلك الفرد ومعتقداته وبين آراء الآخرين ومعتقداتهم، فإن التأثير الاجتماعي سيكون في أدنى مستوياته. فالفرد الذي يعتقد ديانة معينة ويعيش في قرية أفريقية مثلاً لا يمكن أن يكون له تأثير اجتماعي على أفراد يعتقدون ديانة أخرى ويعيشون في مدينة آسيوية نائية. وعلى ضوء ذلك، نفهم أن التأثير الاجتماعي يحصل غالباً بين الأفراد الذين يعتقدون ديناً واحداً ويؤمنون بنظام عقائدي واحد، فيما إذا اجتمعوا في مكان واحد؛ لأن اجتماع هؤلاء الأفراد في مكان واحد سيولد ضغطاً نحو الانسجام الاجتماعي. وهذا الضغط هو الذي يبذل قلوب الناس بعضهم تجاه بعض آخر، ويجعلهم أكثر اقتناعاً بضرورة تقاربهم الفكري والسلوكي. وهذا عين ما يحصل أثناء مناسك الحج العظيمة وقبلها وبعدها.

#### (١١) المسائل الاساسية

يشير الإمام عليه السلام في تشخيصه لطبيعة المسائل التي ينبغي تناولها في الحج، فيقول: «... وفي هذا الاجتماع المقدس للحج عليهم أن يتبادلوا وجهات النظر في

المسائل الإسلامية الأساسية أولاً، وفي المسائل الخاصة للبلدان الإسلامية ثانياً...» (٢٦).  
تعليق: يمرّ التأثير الديني على الناس بمراحل ثلاث. ولنفترض أنّ طالباً يذهب إلى محاضرة ما؛ فذلك الطالب يمر بمراحل فكرية ثلاث تشخص تقبّله للفكرة التي يطرحها المحاضر.

**المرحلة الأولى:** انفتاح ذهنية ذلك الطالب وتهيؤه لتقبل مفردات التأثير والتأثير. بمعنى أنّ الفرد الذي يبذل جهده للذهاب إلى إحدى مجالس الدرس للاستماع إلى محاضرة في علم السياسة مثلاً، لا بد له من تهيئة ذهنه بشكل مسبق لتقبل أو رفض النظريات السياسية التي يقدمها المحاضر.

**المرحلة الثانية:** تشخيص المستمع للنقص الفكري الذي يعاني منه، أو حاجته لتقبل الأفكار والمعتقدات التي يطرحها الطرف المقابل؛ ومصادقها أنّ المستمع إذا لاحظ ان المحاضر - في مثالنا السابق - قد قدّم نظرية جديدة مقنعة، فاقنع هذا المستمع بصحتها وانسجام مفرداتها مع الواقع، عندئذ يسمي هذا الطالب أقرب إيماناً بتلك النظرية.

**المرحلة الثالثة:** هضم الفرد للفكر المطروح من أجل التأثير، وتقبّله لذلك التأثير باعتباره فكراً يتناسب مع نظامه الأخلاقي الذي آمن به، وهذه المرحلة تعكس إيمان الفرد - في المثال المذكور سابقاً - بأن تبني تلك النظرية المطروحة من قبل المحاضر سيكون أمراً شخصياً حتمياً.

ومن المسلمّ به بين أواسط علماء اهل الفن، أنّ التجانس الاجتماعي يعتبر من أهم عناصر التأثير السياسي والفكري على الأفراد؛ لأنّ التأثير الحقيقي لا يعمل عمله الفعّال إلا مع أفراد متقاربين في الفكر والاعتقاد؛ بمعنى أنّ التأثير الاجتماعي يتم بين أفراد متقاربين فكراً أكثر مما لو كان بين أفراد يختلفون تماماً في الفكر والمعتقد؛ ولذلك، فإن الحج واقعاً هو أعظم ساحة للتأثيرات والتغيرات الاجتماعية التي تهدف الرسالة الإسلامية إحداثها على الصعيد العالمي. ولولا طاعة

الأفراد للرسالة الدينية وأحكامها الشرعية لما حصل التأثير الاجتماعي المنشود. فإطاعة الأفراد للنظام الديني طوعية اختيارية إذا كانت السلطة سلطة شرعية، بمعنى أنّ الأفراد يحاولون - بصدق - اطاعة النظام الديني أو الاجتماعي إذا لم تُسلط عليهم سلطة لا يؤمنون بشرعيتها. واعتقاد الناس بأنّ الدين سلطة شرعية يسهّل عملية الانقياد له ولأحكامه، بل يسهّل في الواقع عملية تغيير توجهاتهم، وبنائهم بالطريقة التي صممتها الشريعة لهم. ولولا طاعة الأفراد للنظام الاجتماعي لما استطاع المجتمع وقيادته السياسية من الصمود بوجه الفوضى الناتجة من عصيانهم للقوانين التي تنظّم حياة المجتمع. وبذلك نستنتج أنّ للطاعة دوراً رئيسياً في اكمال عملية التأثير على الأفراد، خصوصاً فيما يتعلق بالحج. فالحج ينشئ استعداداً عظيماً عند الأفراد لإطاعة الأحكام الشرعية دون نقاش أو جدال.

وفي جوّ عبادي كهذا، لا بدّ من طرح المسائل الأساسية وتجاوز المسائل الهامشية، ذلك أنّ المسائل الأساسية لها ساحة أوسع في الحج من زاوية التقبل والاستيعاب.

#### (١٢) اجتماع أهل الفكر والرأي

يقول ﷺ: «... وأن يجتمع هناك أصحاب الفكر والكتاب والمثقفون والعلماء لدراسة مشاكل المسلمين ولحلّ ما أمكن حلّه...» (٢٧).

تعليق: إنّ إطلاق الشريعة وعدم تقييدها لتصرفات الناسك خارج إطار الأعمال الواجبة في الحج، يفتح الطريق لاستثمار ألوان الملاقاة والتلاقح الفكري بين الحجيج بلحاظ الأعراف الاجتماعية والارتكازات العقلية المتفق عليها. فإذا كان العرف الاجتماعي يتقبل الكتاب المكتوب كوسيلة من وسائل التأثير، تعيّن على المؤمنين بدافع وعيهم لمتطلبات التغيير الاجتماعي بذل جهودهم في إيصال أحكام الشريعة الغراء وأفكارها عن هذا الطريق إلى كلّ المجتمعين في تلك البقعة الطاهرة

من العالم . وإذا كان العرف الاجتماعي لا يتقبل إلا التأثير الشفهي تعين على المؤمنين أخلاقياً ، القيام بذلك العمل . وهذه الحرية في استخدام وسائل التأثير على الأفراد ، تعتبر أنضج ثمرأ وأعرق انتاجاً على صعيد التغيير الاجتماعي المطلوب .  
إن السلوك الجمعي الإسلامي في الحج يؤدي إلى تغيير ملموس . فالحج باعتباره سلوكاً جمعياً منتظماً وثابتاً في الزمان والمكان والشروط ، يمتلك تأثيراً هائلاً في النفوس . ويمكن ملاحظة طبيعة السلوك الجمعي لأهل الرأي عبر النقاط التالية :

- أ - إن السلوك الجمعي الإسلامي يؤدي كل سنة في موعد منتظم ومحدد . وهذا يعني أن تأثير السلوك الجمعي الإسلامي يبقى مستمراً على مرّ السنين .  
ب - إن الحج والسلوك الجمعي المنبثق عنه قضية عالمية بكل أبعاد الكلمة ؛ لأنّ الحجيج يأتون إلى مكة من مختلف أنحاء العالم ، ولا يفصلهم في أداء مناسكهم فاصل عرقي أو جغرافي أو لغوي ، وقد جاء في النصّ المجيد : ﴿... يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾<sup>(٢٨)</sup> . ولذلك فإنّ التأثير الذي يكتسبونه من خلال التلاحق الفكري فيما بينهم هو أهم مصادر التغيير الاجتماعي .  
ج - إن شروط ذلك السلوك الجمعي تحقق كما لأكبر نحو التغيير الاجتماعي ، وهي شروط البلوغ وسلامة الجهاز العقلي والاستطاعة الشرعية للفرد . بمعنى أنّ الحجيج هم من الأفراد الذين لديهم القدرة العقلية على تحمل أعباء الحج ومسؤولياته الاجتماعية ؛ بينما يحتمل أن يقوم بالسلوك الجمعي في مناسبة غير الحج أفراد ليست لديهم قابليات عقلية على التغيير ، أو صبيان ليست لديهم الخبرة الكافية ، مع أنّ سلوكهم يسمى سلوكاً جمعياً .

### (١٣) اجتماع الكعبة والمنهج الإلهي

يقول الإمام عليه السلام في وصف ذلك المؤتمر ومنهجه الإلهي : «اجتماع الكعبة أكبر اجتماع ، لاتستطيع أية حكومة أن تعقده بنفسها ، والله سبحانه وضع المنهج لاجتماع

المسلمين دون أن يكلف ذلك الحكومات أية مشقة أو نفقات» (٢٩).

**تعليق:** إنَّ الحركات الاجتماعية التي يؤسسها الأفراد لمعالجة مشكلة من المشاكل الاجتماعية، غالباً ما تنحلّ وتموت بانحلال تلك المشكلة. فحركات التحرر الوطنية من الاستعمار تنحلّ مع رحيل الاستعمار، وحركات تحرر المرأة تنحلّ مع اكتساب المرأة حقوقها الاجتماعية، وحركات المساواة بين الأجناس البشرية المتباينة تموت بعد تحقق التغيير الاجتماعي في المساواة بين الأفراد. إلا أنَّ الحج وشعاره العظيم بالبراءة من المشركين، يبقى فوق كلِّ الحركات الاجتماعية وطروحاتها. فهو، وإن كان سلوكاً جماعياً منظماً، إلا أنَّ أطروحته الفكرية الشاملة، وتصميمه الإلهي يجعله مستمراً مع بقاء الحياة الاجتماعية على وجه الأرض. وما القرون الأربعة عشر التي مرّت على تنزيل التشريع، والأحداث التي مرّت خلالها على الانسانية، إلا دليل موضوعي ناصع على أنَّ الحج ما هو إلا جزء من التصميم الإلهي للخلق والمخلوقات ومصالحهم الاجتماعية.

#### (١٤) البراءة من المشركين

يقول ﷺ في إعلان البراءة من المشركين: «...علينا أن نعلن كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة من ذلك المكان المقدس... لنكسر الأصنام ولنرم الشياطين وعلى رأسهم الشيطان الأكبر في العقبات ونطردهم، ليكون حجّنا حج خليل الله...» (٣٠).

**تعليق:** لما كان الحج يعكس أكمل مثال من أمثلة السلوك، فإنّه لا بدّ وأن يرفع أرقى الشعارات الاجتماعية التي تؤدي في النهاية إلى التغيير الاجتماعي المطلوب. وهذا الشعار الذي أمر الإسلام المكلفين برفعه في الحج هو شعار (البراءة من المشركين)، كما ورد في قوله تعالى: ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ (٣١)، وقوله تعالى: ﴿وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتهم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب اليم﴾ (٣٢). فأعظم

الانحرافات التي يدينها الإسلام وبعدها مصدر كل أنواع الشقاء الإنساني هو الشرك بالله عز وجل . ولا شك أن بقاء الشرك في المجتمع الانساني يعدّ عائقاً من عوائق اقامة العدالة الاجتماعية . فاعلان البراءة من المشركين هو من أعظم المساهمات في التطلع نحو هدف تغيير المجتمع الانساني إلى مجتمع موحد قائم على أساس تطبيق أحكام الرسالة الإلهية ، وما ينبثق عنها من عدالة اجتماعية على جميع المستويات .

### (١٥) المبلِّغ في الحجّ

يقول ﷺ في خطابه الموجه إلى المبلِّغين في الحجّ: «أوصلوا هذا المؤتمر الإسلامي الكبير إن شاء الله إلى النتيجة المطلوبة التي يريدتها الإسلام» (٣٣) .

تعليق: ما هي المواصفات التي يجب أن يتحلّى بها المبلِّغ حتى يستطيع أن يقوم بتأثير اجتماعي فعّال على بقية الأفراد من الحجيج ؟ قد يتلخص الجواب بثلاثة عوامل يجب أن تتوفر في ذلك المبلِّغ الذي يحاول أن يؤثر على الحجيج على الصعيدين الفردي والجماعي :

أولاً: الثقة بالنفس . وهي من أهم عوامل التأثير الاجتماعي ؛ لأنّ الثقة بالنفس تعكس إيمان المبلِّغ بالعقيدة التي يحملها ويدعو إليها . وإقناع الآخرين بصحة النظرية التي يطرحها الفرد المؤثّر لا بدّ من أن يكون مستنداً على ثقته المطلقة بصحة فكرته ؛ لأنّ الشك في أصل الفكرة لا يساهم في إنجاح عملية التأثير الاجتماعي ، بل يساهم في تحطيمها وافشالها .

ثانياً: العلم والمعرفة ، وهي حالة الفهم التي يختبرها الفرد من خلال الدراسة والخبرة والاستكشاف . فالعالم هو الذي يستلم مباشرة المعلومات التي يستطيع إدراكها بوضوح ، فيحللها ويبني عليها فهماً جديداً على درجة عالية من اليقين دون أدنى شك .

ثالثاً: أنّ من وسائل التأثير الاجتماعي المهمة هو مقابلة المؤثّر أو المبلِّغ

للأفراد الذين يريد تغييرهم وجهاً لوجه . بمعنى أن إقناع جماهير الحجيج بضرورة تطبيق أحكام الإسلام ورسالة الدين ومكافحة الظلم والفساد مثلاً، يكون أكثر فاعلية إذا تم الاتصال بين المبلِّغ وبقية الأفراد اتصالاً شفهيّاً مباشراً .

إنّ التأثير الاجتماعي في الحج ينبع من تطابق آراء الحجيج ونظراتهم تجاه العدالة والحق والخالق والكون والحياة . والحقائق الكونية والاجتماعية المرسومة في ذهنية هؤلاء الحجيج ما هي إلا نتاج المعالم الأخلاقية للرسالة الإسلامية . ولما كان التجانس الاجتماعي من أهم وسائل التأثير، أصبح واضحاً أنّ من أهم أهداف الحج هو تغيير المجتمعات الإسلامية المتباينة في العادات والتقاليد والثقافات ورفعها إلى مستوى شرعي مقبول، بحيث تكون مهتأة فكرياً ونفسياً لإقامة الدولة الإسلامية العالمية الموحّدة .

### الهوامش :

- (١) آل عمران: آية ٩٦-٩٧ .
- (٢) الفتح: آية ٢٧ .
- (٣) المائدة: آية ٢ .
- (٤) النمل: آية ٩١ .
- (٥) البقرة: آية ١٩٧ .
- (٦) الرعد: آية ١١ .
- (٧) الروم: آية ٣٠ .
- (٨) «الحج: مؤتمر عبادي - سياسي» - مجموعة خطابات ونداءات الإمام الخميني رحمته الله . مركز الحج للدراسات والنشر ١٤٠٧ هـ : ٤١ . من رسالة الإمام رحمته الله عند تعيينه المشرف العام على الحج الإيرانيين في ٢٨ شوال ١٣٩٩ هـ . ق .
- (٩) كتاب «الحج»: ٤٨ . نداء إلى حجاج بيت الله الحرام . ٧ ذي القعدة ١٣٩٩ هـ . ق .

- (١٠) كتاب «الحج»: ٤٩. نداء إلى حجاج بيت الله الحرام ٧ ذي القعدة ١٣٩٩ هـ. ق.
- (١١) كتاب «الحج»: ٤١. بيان الإمام عليه السلام حول تعيين المشرف العام على الحجاج الإيرانيين ٢٨ شوال ١٣٩٩ هـ. ق.
- (١٢) الرعد: ١١.
- (١٣) كتاب «الحج»: ٥٥. لقاءه بعلماء ورؤساء قوافل الحج ٨ ذي القعدة ١٣٩٩ هـ. ق.
- (١٤) كتاب «الحج»: ٩٧. من لقاءه بسفراء الدول الإسلامية في عيد الاضحى المبارك ١٠ ذي الحجة ١٤٠٠ هـ. ق.
- (١٥) كتاب «الحج»: ٩٧. من لقاءه بسفراء الدول الإسلامية في عيد الأضحى المبارك ١٠ ذي الحجة ١٤٠٠ هـ. ق.
- (١٦) الحج: ٢٦.
- (١٧) الحج: ٢٨.
- (١٨) الحج: ٢٨.
- (١٩) آل عمران: ٩٦.
- (٢٠) الحج: ٢٧.
- (٢١) كتاب «الحج»: ٩٧. مصدر سابق.
- (٢٢) التوبة: ٢٨.
- (٢٣) كتاب «الحج»: ٢١-٢٢. من نداءه عليه السلام إلى حجاج بيت الله الحرام. ذي الحجة ١٣٩٠ هـ. ق.
- (٢٤) كتاب «الحج»: ٢٢. مصدر سابق.
- (٢٥) «فقه القرآن» للراوندي: ٣٢٧.
- (٢٦) كتاب «الحج»: ٢٣.
- (٢٧) كتاب «الحج»: ٤٨. من نداءه عليه السلام إلى حجاج بيت الله الحرام. ٧ ذي القعدة ١٣٩٩ هـ. ق.
- (٢٨) الحج: ٢٧.
- (٢٩) كتاب «الحج»: ٩٨. من لقاءه بسفراء الدول الإسلامية في عيد الاضحى المبارك ١٠ ذي الحجة ١٤٠٠ هـ. ق.
- (٣٠) كتاب «الحج»: ١٩٧. من نداءه عليه السلام بمناسبة عيد الاضحى المبارك ١٠ ذي الحجة ١٤٠٣ هـ. ق.
- (٣١) التوبة: ١.
- (٣٢) التوبة: ٣.
- (٣٣) كتاب «الحج»: ١٩١. من لقاءه بعلماء قوافل الحج ٨ ذي القعدة ١٤٠٣ هـ. ق.